

تفسير السعدي

@ 571 @ (الأبصار) ^ أي : ألم تشاهد ببصرك ، عظيم قدرة الله ، وكيف ^ (يزجي) ^ ، أي يسوق ^ (سحابا) ^ قطعاً متفرقة ^ (ثم يؤلف) ^ بين تلك القطع ، فيجعله سحاباً متراكماً ، مثل الجبال . ^ (فترى الودق) ^ أي : الواابل والمطر ، يخرج من خلال السحابة ، نقطة متفرقة ، ليحصل بها الانتفاع ، من دون ضرر ، فتمتلئ بذلك ، الغدران ، وتتدفق الخلجان ، وتسيل الأودية ، وتنبت الأرض من كل زوج كريم ، وتارة ينزل الله من ذلك السحاب ، برداً يتلف ما يصيبه . ^ (فيصيب به من يشاء ، ويصرفه عن من يشاء) ^ أي : بحسب اقتضاء حكمه القدري ، وحكمته التي يحمد عليها . ^ (يكاد سنا برقه) ^ أي : يكاد ضوء برق ذلك السحاب ، من شدته ^ (يذهب بالأبصار) ^ ، أليس الذي أنشأها وساقها لعباده المفتقرين ، وأنزلها على وجه يحصل به النفع وينتفي به الضرر ، كامل القدرة ، نافذ المشيئة ، واسع الرحمة ؟ ^ (يقلب الله الليل والنهار) ^ من حر إلى برد ، ومن برد إلى حر ، ومن ليل إلى نهار ، ومن نهار إلى ليل ، ويدل الأيام بين عباده . ^ (إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار) ^ أي : لذوي البصائر ، والعقول النافذة للأمور المطلوبة منها ، كما تنفذ الأبصار إلى الأمور المشاهدة الحسية . فالبصير ، ينظر إلى هذه المخلوقات نظر اعتبار وتفكير ، وتدبر لما أريد بها ومنها ، والمعرض الجاهل ، نظره إليها نظر غفلة ، بمنزلة نظر البهائم . ^ (والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع يخلق الله ما يشاء إن الله على كل شيء قدير) ^ ينبه عباده على ما يشاهدونه ، أنه خلق جميع الدواب ، التي على وجه الأرض ، ^ (من ماء) ^ أي : مادتها كلها ، الماء ، كما قال تعالى : ^ (وجعلنا من الماء كل شيء حي) ^ . فالحيوانات التي تتوالد ، مادتها ، ماء النطفة ، حين يلقي الذكر الأنثى . والحيوانات التي تتولد من الأرض ، لا تتولد إلا من الرطوبات المائية ، كالحشرات لا يوجد منها شيء ، يتولد من غير ماء أبداً . فالمادة واحدة ، ولكن الخلقة مختلفة ، من وجوه كثيرة ، ^ (فمنهم من يمشي على بطنه) ^ كالحية ونحوها ، ^ (ومنهم من يمشي على رجلين) ^ كالآدميين ، وكثير من الطيور ، ^ (ومنهم من يمشي على أربع) ^ كبهيمة الأنعام ونحوها . فاختلفا مع أن الأصل واحد يدل على نفوذ مشيئة الله ، وعموم قدرته ، ولهذا قال : ^ (يخلق الله ما يشاء) ^ أي : من المخلوقات ، على ما يشاؤه من الصفات . ^ (إن الله على كل شيء قدير) ^ كما أنزل المطر على الأرض ، وهو لقاح واحد ، والأم واحدة ، وهي الأرض ، والأولاد مختلفو الأصناف والأوصاف ^ (وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها

على بعض في الأكل إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون) ^ . ^ (لقد أنزلنا آيات مبينات و^١
يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم) ^ أي : لقد رحمنا عبادنا ، وأنزلنا إليهم آيات بينات ،
أي : ووضحت الدلالة ، على جميع المقاصد الشرعية ، والآداب المحمودة ، والمعارف الرشيدة .
فاتضحت بذلك السبيل ، وتبين الرشد من الغي ، والهدى من الضلال ، فلم يبق أدنى شبهة
لمبطل ، يتعلق بها ، ولا أدنى إشكال ، لمريد الصواب ، لأنها تنزيل من كمل علمه ، وكملت
رحمته ، وكمل بيانه ، فليس بعد بيانه بيان (ليهلك) بعد ذلك (من هلك عن بينة ويحيا
من حي عن بينة) . ^ (و^٢ يهدي من يشاء) ^ ممن سبقت لهم سابقة الحسنى ، وقدم الصدق .
^ (إلى صراط مستقيم) ^ أي : طريق واضح مختصر ، موصل إليه ، وإلى دار كرامته ، متضمن
العلم بالحق وإيثاره ، والعمل به . عمم البيان التام لجميع الخلق ، وخصص بالهداية من
يشاء ، فهذا فضله وإحسانه ، وما فضل الكريم بممنون وذاك عدله ، وقطع الحجة للمحتج
و^٣ أعلم حيث يجعل مع مواقع إحسانه . ^ (ويقولون آمنا با^٤ وبالرسول وأطعنا ثم يتولى
فريق منهم من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين * وإذا دعوا إلى ا^٥ ورسوله ليحكم بينهم إذا
فريق منهم معرضون * وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين * أفي قلوبهم مرض أم ارتابوا
أم يخافون أن يحيف ا^٦ عليهم ورسوله بل أولئك هم الظالمون) ^ يخبر تعالى عن حالة
الظالمين ، ممن في قلبه مرض وضعف إيمان ، أو نفاق ، وريب ، وضعف علم ، أنهم يقولون
بأسنتهم ، ويلتزمون الإيمان با^٧ والطاعة ، ثم لا يقومون بما قالوا ، ويتولى فريق منهم
عن الطاعة ، توليا عظيما ، بدليل قوله : ^ (وهم معرضون) ^ فإن المتولي ، قد يكون له
نية عود ورجوع إلى ما تولى عنه . وهذا المتولي ، معرض ، لا التفات له ، ولا نظر لما تولى
عنه ، وتجد هذه الحالة مطابقة لحال كثير ممن يدعي الإيمان والطاعة ^٨ وهو ضعيف الإيمان .
وتجده لا يقوم بكثير من العبادات ، خصوصا : العبادات ، التي تشق على كثير من النفوس ،
كالزكاة ، والنفقات الواجبة والمستحبة ، والجهاد في سبيل ا^٩ ونحو ذلك . ^ (وإذا دعوا
إلى ا^{١٠} ورسوله ليحكم بينهم) ^ أي : إذا صار بينهم ، وبين أحد ،